﴿ ومَنْ يُشابِهِ أَبَهُ فما ظَلَمْ ﴾

بقلم

أ.د/ شحات حسيب الفيومى

أستاذ التفسير وعلوم القرآن

﴿ ومَنْ يُشابه أَبَهُ فما ظَلَمْ [1] ﴾

لا تسكب أحزانك فى كأسى :

تنفس صبح يوم من الأيام الأخيرة من شهر أغسطس من عام ألف وتسعمائة وخمسة وتسعين. فخرجت إلى الرياح المنوفى وكان الصيف فى خريف عمره. فلقد كسرت نسمات الفجر شدة حرارته. فجذبنى الشاطئ إليه بسحر بساطه وصفاء سمائه ورقة نسماته. فجلست على ربوة من روابيه. ورحت أقلب وجهى فأرى الجمال والبهاء، الحياة فى كل ناحية من نواحى الشاطئ. فرأيت الزهور التى استوطنت الشاطئ تهصرت [2] على صفحة الماء. إنها مأنه على وجهه. فآصرة العشق بين الزهور والماء أبدية فلا حياة لها بدونه. لقد مالت على وجهه تهمس له بأرق الكلمات . وتنشر عليه من شذاها الذى تجود به من زفيرها. ومع همس الزهور للماء تحلق الطيور الصادحة فى جوه الهادئ. فتشدوا بألحان متباينة الأنغام. وترك بعضها الجو وشغل بالطفو فوق الماء. وآثر بعضها الغوص فى الماء. إنه عالم يعرض مواهبه الجسدية. وألحانه الرقيقة الندية.

فكان مشهداً من المشاهد الخالدة فى الخواطر فلا يميتها النسيان أو مرور الأزمان. وبينما أنا فى بهجة لم أرها منذ طفولتى ولم أشعر بها من سنين طويلة من جحافل الهموم التى تهاجم كل مسلم. لقد تتابعت موجات النسيم التى كثرت فحملت معها أنغام «ناى» يصدر ألحانه من بعيد وصداه يرتفع وينخفض فاشرأبت عنقى وتطلعت إلى مصدر الصوت الذى عرك مشاعرى وأيقظ

١- هذا الشطر الأخير من بيت شعر « بأبه اقتدى عدى فى الكرم ..- ومن يشابه أبه فما ظلم » وأستدل به ابن عقيل على بعض اللغات فى « أب وأخ وحم » وهى لغة النقص. وهى حذف الواو والألف والياء والإعراب يكون بالحركات الظاهرة فتكون مرفوعة بالضمة على الباء ومنصوبة بالفتحة على الباء ومجرورة بالكسرة على الباء. وهى لغة نادرة.

٢- تهصرت : مالت.

أحاسيسى. إن الناى يبوح بأنات أعادتنى إلى الماضى وآلامه. فاجترت الذكريات وكأنها بمرارتها ومضات على درب الحياة كان لابد منها.

قرب صوت الناى منى فقمت أنظر إلى مصدره فوجدت عربة يجرها برذون يركب عليها شاب تعلو محياه سمرة العربى قد وضع لجام الحمار تحت ركبته ويمسك الناى بأصابعه فبادرته بالتحية فردها ولم يعبأ بظهورى أمامه. فحدثته فنزل فتطفلت عليه وحدثته ومن معالم الحديث أدركت أن هذا العمل ليس مهنته وهو ابن للجامعة أرضعته ونظمته فى عام أربعة وثمانين وتسعمائة وألف من الميلاد. وسألته : لم تعمل هذا العمل بعد الجامعة. فنظر إلى. وقال : وهل وجدت عملا وأعرضت ؟ قلت له إن أرض الكنانة رحبه.

قال لقد عملت فى العاصمة. وكنت آخذ أجرا قدره أربعمائة جنيه. وآكل وأسكن بمائة وخمسين. قلت له هل تدخن ؟ قال : من أين ؟ قلت له عمل طيب. قال : « لا طيب ولا حاجة ». أعمل من الساعة الثامنة صباحا إلى الساعة الثانية عشرة عند منتصف الليل. وأعمل كحمال ينقل البضائع من السيارات الكبيرة إلى أن تدخل منافذ التوزيع. إنسان أشبه بالآلة فلا أعرف شيئا عن عالمنا. ولما ضاقت نفسى رجعت إلى قريتى. فقلت له لقد ادخرت مهر عروسك. قال يا أخى لا تهزأ بى لقد أتيت هاربا من العمل المميت. فوجدت « الغلب فى انتظارى ». وجدت حجر الديب الذى أسكن فيه أنا وأسرتى قد خر وسقط من ضعفه وقعد يستريح من ضربات عوامل التعرية فهو من قوالب الطوب اللبن.

واتجهت إلى « الادارة الهندسية » فى أشمون. فخرج موظفوها على يقدمهم رائدهم الأزهرى الذى ارتدى العمامة والكاكولة مذ كان طالبا.

فلقد مات ضميره وأصبح لا يرى إلا رسوم الرخص وإن كانت مخالفه. باع ماضيه الثمين واشترى زينة زائلة. ويبدو أن جميع المحليات ومجالس المدن

أصابها الوباء وقلك من عظامها سرطان الرشوة والفوضى والمحسوبية وهى أساس سوء الإدارة فى مصر.

قلت له : دعنى يا أخى فالإدارة الهندسية بأشمون لها آلاف المخالفات ورغم مرضها المزمن فإن الموظفين لا يحاسبون إلا حسابا يسيرا أما فى الآخرة فحساب الله لهم عسير. فلا تسكب أحزانك فى كأسى فقد ملئت من أشمون ومن الإدارات فيها ومن رؤساء مجالس أشمون قاتل الله الظالمين منهم. قال لى : لقد شغلتنى عن نقلة أنقلها فلا تكن سببا فى ضياع ثمن الإفطار منى قلت له أريد أن أتحدث معك وخذ منى ثمن الافطار.

قال لى : لم أتعب فيه فكيف آخذه.

قلت له : لو لم تنبت نباتا حسنا ما رددت هذا الرد. وليت أهل مصر يعرفون ذلك.

قال لى : إننى أحفظ القرآن.

قلت له : ليت كل مصرى وكل مسلم يحفظون القرآن فتستقيم حياتهم ويعلو شأنهم وتعظم حضارتهم.

قال لى : لقد تأخرت فدعنى أركب عربتى وأعزف على الناى فهو سلوتى. به أجتر مرارتى وحرمانى. وفيه أسكب أنينى وأغسله بدمعى. فلا يشعر بلحن الناى إلا كل من نبت نبتى وسلك دربى.

سيدى : لا تقطع على سلوتى ودعنى أغنى لحن الضياع والفناء. فكل الشباب مشحون بالهموم والآلام. بسبب مستقبلهم الذى لا يرون فيه وميضا يبث فيهم الأمل. واسمع منى هذه الأبيات التى أحفظها فهى سلوتى وسلوة شباب عصرى :

ظلام البريـة سـاعـات ليـل ∴ وظلمـة عيشى بغـير انقضاء

يطاردنى الحزن عمـرا طويلاً ∴ وتسحقنى عـاديـات القضاء

أعـلل قـلبى بصبح قـريب ∴ ولـم أر إلا اطـراد العنـاء

وأخـدع نفسى بـوهم معين ∴ فألمـح وهمى سريـع العنـاء

هوت بالرجاء سنون الشباب ∴ وبالشيب تهوى خيوط الرجاء

فرفقاً بعمر يضيـع انتظاراً ∴ وتسقـط منـه الأمانى هبـاء

ورفقاً بقلب شجتـه الليالى ∴ وما عـاد يملك غير البـكاء

قلت له : جادت حافظتك بقريض أروع من صديقك الناى.

مر الشاب الأسمر ونايه ينوب عنه فى نقل صراخه وعويله ، وليس على الناى من حرج ، لأنه لا يفهم لغته إلا من تقلب فى الأحزان والآلام.

بعض علم الوراثة على الشاطئ :

مازالت موجات النسيم تمسح وجهى فى رقة ولطف ، فعدت إلى الربوة بعد الحديث مع الشاب الذى حطمته الرزايا ، وأثقلت كاهله الأيام ، وبينما أملأ صدرى بالهواء الرقيق ، وجدت ورقة حملها النسيم فتناولتها يدى ، فوجدتها قد سلخها أحد دعاة الجهل ، وقطعها من كتاب يجود بكثير من المعارف. كانت الورقة تمشى الهوينا فخلصتها من الأتربة التى لوثتها ورحت أقرأها ، فإذا فيها أن الصفات الوراثية تتقلب فى الأجيال المتعاقبة وهذه الصفات تنتقل من الآباء والأمهات إلى الأبناء.

فقد ترث الذرية إجرام الآباء ، وقد ترث الذرية الذكاء ، وقد ترث الأخلاق الحسنة ، وتنتقل الصفات من جيل إلى جيل ، لقد انتهى ما فى الورقة ، فوليت وجهى شطر القرآن فوجدت القرآن قد أشار إلى ذلك.

قال تعالى ﴿ وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين﴾[1]

وقال تعالى عن نوح ﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا. إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفارا ﴾ [2].

عمر بن عبدالعزيز حفيد عمر بن الخطاب :

قال الإمام أحمد بن حنبل يروى فى الحديث أن الله تبارك وتعالى يبعث على رأس كل مائة عام من يصحح لهذه الأمة دينها ، فنظرنا فى المائة الأولى فإذا هو عمر ابن عبدالعزيز ، ونظرنا فى المائة الثانية فإذا هو الشافعى.

وقال : سفيان الثورى : الخلفاء خمسة : أبو بكر وعمر وعثمان وعلى وعمر بن عبدالعزيز رضى الله عنهم [3].

ولقد وصفه الحافظ أبو نعيم أحمد بن عبدالله الأصفهانى (كان واحد أمته فى الفضل ونجيب عشيرته فى العدل جمع زهداً وعفافاً وورعاً وكفافاً ، شغله آجل العيش عن عاجله ، وألهاه إقامة العدل عن عاذلة [4] ، كان للرعية أمنا وأمانا ، وعلى من خالفه حجة وبرهانا ، كان مفوهاً عليما ومفهما حكيما)[5].

وقال وهب بن منبه : (إن كان فى هذه الأمة مهدى فهو عمر بن عبدالعزيز)[6].

١- سورة النمل آية (٤٣).

٢- سورة نوح آية (٢٦) ، (٢٧).

٣- صفة الصفوة جـ١ ص ٤٠١ لمؤلفه / جمال الدين أبو الفرج عبدالرحمن الجوزى.

٤- عاذلة أى لائمة أى من يلومه.

٥- حلية الأولياء جـ٥ ص ٢٥٤.

٦- المرجع السابق.

عمر بن عبدالعزيز سليل الدوحة المباركة :

عمر بن عبدالعزيز حفيد عمر بن الخطاب ، ولقد حملت شخصية بن عبدالعزيز كثيرا من صفات الجد عن طريق الوراثة ، فظهرت تلك الصفات فى تكوينه الفطرى وترجمها السلوك العملى ، يروى أبو الفرج الجوزى [1] عن عبدالله بن زيد بن أسلم عن أبيه عن جده أسلم ، قال : بينما أنا مع عمر بن الخطاب وهو يعس بالمدينة إذ عيى - تعب - فاتكأ على جانب جدار فى جوف الليل ، فإذا إمرأة تقول لابنتها : يا بنتاه قومى إلى ذلك اللبن فامذقيه بالماء. فقالت لها يا أمتاه أو ما علمت ما كان من عزمة أمير المؤمنين اليوم ؟ قالت : وما كان من عزمته يا بنية. قالت : إنه أمر مناديه فنادى أن لا يشاب اللبن بالماء. فقالت لها يا بنتاه ، قومى إلى اللبن فامذقيه بالماء فإنك بموضع لا يراك عمر ، ولا منادى عمر. فقالت الصبية لأمها : يا أمتاه والله ما كنت لأطيعه فى الملأ وأعصية فى الخلاء ، وعمر يسمع كل ذلك. فقال يا أسلم علم الباب وأعرف الموضع ، ثم مضى فى عسسه فلما أصبح قال : يا أسلم ، أمض إلى الموضع فأنظر من القائلة ومن المقول لها. وهل لهم من بعل : فأتيت الموضع ، فإذا الجارية أيم لا بعل لها وإذا تيك أمها وإذ ليس لهما رجل. فأتيت عمر بن الخطاب فأخبرته .

فدعا عمر ولده فجمعهم ، وقال لهم : هل فيكم من يحتاج إلى إمرأة فأزوجه. ولو كان لأبيكم حركة إلى النساء ما سبقه منكم أحد إلى هذه الجارية. فقال عبدالله : لى زوجه . وقال : عبدالرحمن لى زوجه. وقال عاصم : يا أبتاه لا زوجه لى فزوجنى. فبعث عمر إلى الجارية فزوجها من عاصم. فولدت لعاصم بنتا وولدت البنت عمر بن عبدالعزيز) [2].

١- من كتابة تاريخ عمر بن الخطاب ، ص ١٠١ ، ١٠٢.

٢- تاريخ عمر بن الخطاب ، ص ١٠١ ، ١٠٢.

فلقد ورث عمر بن عبدالعزيز الصفات الوراثية التى أمتزجت فى فطرته وكأنه بوتقة جمع فيها الصفات الوراثية الجميلة والخلال النفيسة من جذوره ، فكان ثمرة أنبتت دوحة أظلت أمة بأسرها فأستراحت الأمة الإسلامية فى ظلالها بعد ما أصابها هجير بنى أمية. فظلت تلك الدوحة تجود بالثمار والظلال دون أن تسقى بالماء والغذاء.

حياة عمر بن عبدالعزيز قبل الخلافة :

عاش عمر بن عبدالعزيز حياة المترفين فكان يتقلب فى بحبوحة العيش وطيب المأكل والملبس ، ولقد نطقت مظاهره بذلك . (فعن رجاء بن حيوه قال : كان عمر بن عبدالعزيز من أعطر الناس وأخيلهم فى مشيته. فلما استخلف قوموا ثيابه أثنى عشر درهما : كمته وعمامته وقميصه وقباءه وقرطقه ورداءه وخفيه)[1].

ومما يدل على كثرة ماله قبل خلافته ما أورده أبو نعيم فى حلية الأولياء (عن عبدالعزيز بن عمر بن عبدالعزيز قال : قال لى أبو جعفر يعنى أمير المؤمنين: كم كانت غلة أبيك عمر حين ولى الخلافة ؟ قلت أربعين ألف دينار . قال فكم كانت غلته حين توفى ؟ قلت أربعمائة دينا. ولو بقى لنقصت) [2].

فلقد كان يعيش فى يسار وثراء كبقية بنى أمية. ولم يكن عمر بن عبدالعزيز كفتيانهم بل أنصرف إلى حفظ القرآن والحديث. ولم ينصرف إلى حياة اللعب والصيد والليل والجوارى والنساء. وكان مواظبا على مجالس العلم لقد تأخرذات يوم عن مجلس العلم وسأله شيخه فعرف أنه تأخر بسبب شعره كان يقوم بترجيله فأمر عبدالعزيز والد بجزه.

١- صفة الصفوة ، جـ١ ص ٤٠٤.

٢- حلية الأولياء جـ٥ ص ٢٥٧.

لقد حرص على طلب العلم فنهل من أنهاره وعل من ينابيعه حتى امتلأ علما فصار إمام هدى (عن رجاء عن ابن عون قال : كان ابن سيرين إذا سئل عن الطلا [1] قال نهى عنه إمام هدى - يعنى عمر بن عبدالعزيز) [2].

ملامح شخصية عمر بن عبدالعزيز :

لقد حملت شخصية عمر نفسا عظيمة كبيرة تتوق إلى كل ما هو أعظم وأفضل. حدثنا عنها عمر ذاته . فقال (كانت لى نفس تواقة فكنت لا أبالى منها شيئا إلا تاقت إلى ماهو أعظم فلما بلغت نفسى الغاية تاقت الى الآخرة) [3].

وهذا سر عظمة عمر بن عبدالعزيز حيث تقات نفسه إلى كل ماهو أعظم وأفضل فى دنياها ، فانتقلت بعد ذلك فى الوصول إلى ماهو أعظم وأبقى. وهو الفردوس الأعلى فهان كل شئ فى الوصول إليه. قال عمر بن عبدالعزيز (إن نفسى هذه تواقة لم تعط من الدنيا شيئا إلا تاقت إلى ماهو أفضل منه. فلما أعطيت الخلافة التى لا شئ أفضل منها تاقت إلى ماهو أفضل منها قال سعيد : الجنة أفضل من الخلافة) [4].

ومع عظم هذه النفس فقد كانت تضطرب من الخوف الذى يجرى منها مجرى الدم فى العروق فحدا بها إلى طريق النجاة والفوز بما عند الله. فهذان الأمران أى عظم نفسه وتطلعها إلى المعالى وإلى معالى الدار الآخرة والخوف ، أثمر ثماراً عظيمة منها العدل والزهد والعفاف والورع والجود والكرم والصبر والإيثار. فلم يخرج عن إطار الطاعة ولم يشرد إلى حرم المعصية.

١- الطلى : بالكسر ، هو الشراب المطبوخ من عصير العنب وقد يكون نهيه عنه تنزيها للمسلم . أو أنه إذا ترك يصير خمراً.

٢- حلية الأولياء جـ٥ ص ٢٥٧.

٣- المرجع السابق ص ٣٣١.

٤- المرجع السابق.

معالم الطريق إلى الخلافة :

عاشت الأمة الإسلامية فى جو مباين لأجواء الرسول ﷺ والخلفاء الأربعة وذلك فى عصر بنى أمية ولاسيما فى الفترة التى سبقت خلافة عمر بن عبدالعزيز فلقد كانت نفوس المسلمين تصرخ صراخاً غير مسموح بل صداه فى خواطرهم وأفئدتهم يدوى ، ألا من أمير يجدد عهود الماضى وينشر على الأمة العدل والأمان.

ولقد حدثت أمور أشارت إلى أن عمر بن عبدالعزيز سيتولى أمر الأمة الإسلامية منها :

أ- (عن عبيد الله بن عمر عن نافع . قال : كنت أسمع ابن عمر كثيرا يقول : ليت شعرى مَنْ هذا الذى فى وجهه علامة من ولد عمر يملأ الأرض عدلا)[1].

ب- (عن حبيب بن هند الأسلمى. قال : قال لى سعيد بن المسيب ونحن على عرفة : إنما الخلفاء ثلاثة : أبو بكر وعمر وعمر . قلت هذا أبو بكر وعمر قد عرفناهما فمن عمر الثالث ؟ قال إن عشت أدركته وإن مت كان بعدك) [2].

جـ- (عن السرى بن يحيى عن رياح عن عبيدة قال : خرج عمر بن عبدالعزيز إلى الصلاة وشيخ متوكئ على يده ، فقلت فى نفسى إن هذا الشيخ جاف فلما صلى ودخل لحقته فقلت أصلح الله الأمير مَنْ الشيخ الذى كان متكئا على يدك ؟ قال : يا رياح رأيته ؟ قلت : نعم. قال : ما أحسبك يا رياح إلا رجلا صالحا. ذاك أخى الخضر أتانى فأعلمنى أنى سألى أمر هذه الأمة وأنى سأعدل)[3].

١- حلية الأولياء جـ٥ ص ٢٥٤.

٢- المرجع السابق ص ٢٥٧.

٣- المرجع السابق ص ٢٥٤.

د- (حدثنا رزق بن رزق الكندى حدثنى ميمون الكوفى أبو حمزة القصاب. قال كنت أحلب الغنم فى خلافة عمر بن عبدالعزيز فمررت براع وفى غنمه نحو من ثلاثين ذئبا فحسبتها كلابا ولم أكن رأيت الذئاب قبل ذلك يا راعى ما ترجو بهذه الكلاب كلها ، فقال : يا بنى إنها ليست كلابا إنما هى ذئاب. فقلت : سبحان الله ذئب فى غنم لا تضرها ؟ فقال : يا بنى إذا صلح الرأس فليس على الجسد بأس وكان ذلك فى خلافة عمر بن عبدالعزيز)[1].

هـ- (حدثنا مالك بن دينار قال : لما استعمل عمر بن عبدالعزيز على الناس قال : رعاء الشاء : مَنْ هذا العبد الصالح - الذى قام على الناس ؟ قيل وما علمكم بذلك ؟ قالوا إنه إذا قام على الناس خليفة عدل كفت الذئاب عن شائنا)[2].

و- (حدثنا موسى بن أعين : قال كنا نرعى الشاء بكرمان فى خلافة عمر بن عبدالعزيز فكانت الشاء والذيب ترعى فى مكان واحد فبينا نحن ذات ليلة إذ عرض الذيب بشاة ، فقلت ما نرى الرجل الصالح إلا قد هلك. قال : حماد فحدثنى هذا أو غيره أنهم حسبوا فوجوده قد هلك) [3].

خلافة عمر بن عبدالعزيز :

لقد انتهت حياة سليمان بن عبدالملك وتولى الخلافة بعده عمر بن عبدالعزيز ولقد عاد بالخلافة إلى سلوك أبى بكر وعمر وعثمان وعلى. وأول عهده بالخلافة أنه (لما دفن سليمان بن عبدالملك وخرج من قبره سمع للأرض هدة أو رجة فقال : ماهذه؟ فقيل : هذه مراكب الخلافة يا أمير المؤمنين قربت إليك لتركبها ، فقال : مالى ولها ؟ نحوها عنى. قربوا إلى بغلتى . فقربت إليه بغلته فركبها. فجاء

١- المرجع السابق ص ٢٥٥.

٢- المرجع السابق.

٣- المرجع السابق ص ٢٥٥ ، ٢٥٦.

صاحب الشرط يسير بين يديه بالحربة فقال : تنح عنى : مالى ولك إنما أنا رجل من المسلمين) [1].

لقد غلبه الخوف من الله فلم يعبأ ببريق الحكم ولا بزينته ولا مواكبه ومراكبه، فلقد خالف الطبائع البشرية فكان فريدا فى سلوكه حين أعرض عن لوازم الحكم. فكل الأنفس البشرية تطلع إلي ما أعرض عمر عنه فنفس عمر أعظم مما أعرض عنه.

عمر بن عبدالعزيز يعلن منهج حكمه فى خطبته :

لما فرغ عمر من دفن سليمان بن عبدالملك وأعرض عن مراكب الخلافة سار وسار الناس معه حتى دخل المسجد. فصعد المنبر. واجتمع الناس. وأراد أن يعرف رضا الناس عنه بالمبايعة. فكثير من الحكام يصلون إلى سدة الحكم بإراقة الدماء وبالنفاق والكذب والخداع والقوة. ولا يضعون إعتبارا لإرادة شعوبهم. ويجثمون على صدورهم عشرات السنين إلى أن ينحيهم القتل أو يزحزحهم الموت عن كراسى الحكم.

لقد خالف عمر هذه الأساليب وسلك طريق الإسلام فى إختيار الحاكم. لقد صعد المنبر. وقال (يا أيها الناس إنى قد ابتليت بهذا الأمر من غير رأى كان منى فيه ولا طلبة له. ولا مشورة من المسلمين. وإنى قد خلعت ما فى أعناقكم من بيعتى. فاختاروا لأنفسكم.

فصاح الناس صيحة واحدة : قد اخترناك يا أمير المؤمنين ورضينا بك فَلِ أمرنا باليمن والبركة. فلما رأى الأصوات قد هدأت ورضى به الناس جميعا حمد الله وأثنى عليه . وصلى على النبى ﷺ . وقال : أوصيكم بتقوى الله ، فإن تقوى الله خلف من كل شئ. ليس من تقوى الله عز وجل خلف. فاعملوا لآخرتكم

١- صفة الصورة جـ١ ص ٤٠١.

فإن من عمل لآخرته كفاه الله تبارك وتعالى أمر دنياه. وأصلحوا سرائركم يصلح الله الكريم علانيتكم. وأكثروا ذكر الموت وأحسنوا الاستعداد قبل أن ينزل بكم. فإنه هادم اللذات. وإن من لا يذكر من آبائه فيما بينه وبين آدم عليه السلام لمغرق فى الموت. وإن هذه الأمة لم تختلف فى ربها عز وجل. ولا فى نبيها ولا فى كتابها. إنما اختلفوا فى الدينار والدرهم. وإنى والله لا أعطى أحداً باطلا. ولا أمنع أحد حقا. ثم رفع رأسه حتى أسمع الناس فقال : يا أيها الناس : من اطاع الله فقد وجبت طاعته. ومن عصى الله فلا طاعة له. أطيعونى ما أطعت الله. فإذا عصيت الله فلا طاعة لى عليكم.

ثم نزل فدخل فأمر بالستور فهتكت وبالثياب التى كانت تبسط للخلفاء فحملت. وأمر ببيعها وإدخال أثمانها فى بيت المال) [1].

موقفه من ظلم بنى أمية وحكام البيت المروانى :

لقد كان عمر يعرف الظلم الذى أصاب أمة الإسلام من قبل حكام بنى أمية. وكان يعترف بذلك. فعن ميمون بن مهران (قال : خرجت مع عمر بن عبدالعزيز إلى المقبرة. فلما نظر إلى القبور بكى. ثم أقبل على فقال : يا أبا أيوب هذه قبور آبائى بنى أمية. كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا فى لذتهم وعيشهم. أما تراهم صرعى قد حلت بهم المثلات. واستحكم فيهم البلاء. وأصابت الهوام فى ابدانهم مقيلا. ثم بكى حتى غشى عليه. ثم أفاق فقال : انطلق بنا فوالله ما أعلم أحدا أنعم ممن صار إلى هذه القبور وقد أمن عذاب الله) [2].

لقد جمع عمر بن العزيز بنى مروان وكان فى يد أبائهم حكم الأمة الإسلامية. وطلب منهم رد هذه الأموال إلى الأمة. بيد أنهم آثروا بقاء الحرام فى أيديهم حتى ولو كلفهم ذلك قتلهم.

١- صفة الصفوة جـ١ ص ٤٠١ ، ٤٠٢.

٢- حلية الأولياء جـ٥ ص ٢٦٩.

(عن جويرية بن أسماء قال . قال عمر بن عبدالعزيز لحاجبه : لا يدخلن على اليوم إلا مروانى. فلما اجتمعوا عنده حمد الله وأثنى عليه ثم قال : يا بنى مروان. إنكم قد أعطيتم حظا وشرفا وأموالا. إنى لأحسب شطر أموال هذه الأمة أو ثلثة فى أيديكم . فسكتوا. فقال عمر ألا تجيبونى ؟ فقال رجل من القوم. والله لا يكون ذلك حتى يحال بين رءوسنا وأجسادنا. والله لا نكفر آباءنا ولا نفقر أبناءنا. فقال عمر : والله لولا أن تستعينوا على بمن أطلب هذا الحق له لأصعرت خدودكم. قوموا عنى)[1].

ولقد اجتمعوا إليه ليطلبوا منه ما كان الخلفاء السابقون يعطونهم. فعن (وهيب بن الورد قال : اجتمع بنو مروان على باب عمر بن عبدالعزيز. وجاء عبدالملك بن عمر ليدخل على أبيه فقالوا له : إما أن تستأذن لنا وإما أن تبلغ أمير المؤمنين عنا الرسالة. قال قولوا. قالوا : إن من كان قبله من الخلفاء كان يعطينا ويعرف لنا موضعنا. وإن أباك قد حرمنا ما فى يديه. قال : فدخل على أبيه فأخبره عنهم . فقال له عمر : قل لهم : إن أبى يقول لكم إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم) [2].

هذا هو موقف عمر بن عبدالعزيز من عشيرته. فكم من حكام بادوا وبادت دولهم. وهلكوا ومن بعد أزمانهم لا يتذكرهم الناس. ولا تتردد أسماؤهم على ألسنة الناس. لطول العهد بينهم. بل هم فى ضمير التاريخ. وقد منحو عشائرهم الكثير من أموال المسلمين وضيعاتهم ظلما. أما عمر بن عبدالعزيز فقلد جعل الله ذكره على ألسنة كل جيل. فيترحم الناس عليه ويتلذذون بمعالم حكمه.

١- المرجع السابق ص ٢٧٣.

٢- المرجع السابق ص ٢٦٧.

اختيار عمر بن عبدالعزيز لعماله :

لقد كان حكام بنى أمية لا يراعون التقوى فى عمالهم. فظهر جيل من العمال يتنقل مع كل حاكم يأتى. فإذا هلك أحدهم. أتى من بعده. فثبت هؤلاء العمال. فاتسموا بالشدة على الرعية فكانوا جبابرة فى الأرض . أما عمر فقد خالف هذا النظام. واختار من كان يكثر من تلاوة القرآن. ويتسم بالخوف من الديان. وهذا نموذج لما فعله عمر.

(حدثنا إبراهيم بن هشام بن يحيى قال : حدثنى أبى عن جدى قال : كان عمر بن عبدالعزيز ينهى سليمان بن عبدالملك عن قتل الحرورية . ويقول ضمنهم الحبوسى حتى يحدثوا توبة . فأتى سليمان بحرورى مستقتل. فقال له سليمان : هية ؟ قال الحرورى : إنه نزع لحبيك يا فاسق ابن الفاسق . فقال سليمان : على بعمر بن عبدالعزيز. فلما أتاه : عاود سليمان الحرورى : فقال ماذا تقول يا حرورى ؟ قال وماذا أقول يا فاسق بن الفاسق. فقال سليمان لعمر ماذا ترى عليه يا أبا حفص ؟ فسكت عمر . فقال : عزمت عليك لتخبرنى ماذا ترى عليه ؟ قال: أرى عليه أن تشتمه كما شتمك. وتشتم أباه كما شتم أباك. فقال : سليمان: ليس إلا ذا ؟ فأمر به فضربت عنقه. وقام سليمان . وخرج عمر فأدركه خالد بن الريان صاحب حرس سليمان . فقال : يا أبا حفص تقول لأمير المؤمنين ما أرى عليه إلا أن تشتمه كما شتمك . وتشتم أباه كما شتم أباك. والله لقد كانت متوقعا أن يأمرنى بضرب عنقك . قال ولو أمرك فعلته ؟ قال إى والله لو أمرنى فعلت. فلما أفضت الخلافة إلى عمر. جاء خالد ابن الريان فقام مقام صاحب الحرس. وكان قبل ذلك على حرس الوليد وعبدالملك.

فنظر إليه عمر. فقال يا خالد . ضع هذا السيف عنك. وقال : اللهم إنى قد وضعت لك خالد بن الريان فلا ترفعه أبدا . ثم نظر فى وجوه الحرس. فدعا عمرو بن مهاجر الأنصارى . فقال يا عمرو والله لتعلمن أن ما بينى وبينك قرابة إلا

قرابة الإسلام . ولكن قد سمعتك تكثر تلاوة القرآن. ورأيتك تصلى فى موطن تظن أن لا يراك أحد. فرأيتك تحسن الصلاة. وأنت رجل من الأنصار . خذ هذا السيف فقد وليتك حرسى) [1].

لقد اختار عماله بميزان التقوى والقرآن والعمل الصالح . فإذا لمس من أحد ولاته أمرا عاتبه (كتب رضى الله عنه إلى عدى بن أرطاة . وكان أستخلفه على البصرة. أما بعد فإنك غررتنى بعمامتك السوداء . ومجالستك القراء. وارسالك العمامة من ورائك. وأنك أظهرت لى الخير. فأحسنت بك الظن. وقد أظهر الله على ما كنتم تكتمون . والسلام) [2].

ولم يترك عمر بن عبدالعزيز عماله يفعلون ما يشاءون . بل كان يتابعهم ويزودهم بالمنهج الذى يسلكونه. (كتب عمر إلى عامل له : أما بعد . فلتجف يداك من دماء المسلمين . وبطنك من أموالهم. ولسانك من أعراضهم. فإذا فعلت ذلك فليس عليك سبيل " إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ") [3].

الهدية فى نظر عمرو بن عبدالعزيز :

كانت الهدية فى نظره للأمراء والولاة والعمال رشوة. ولقد فعل ذلك حتى تستقيم أمور المسلمين. فعن (عمرو بن مهاجر قال : اشتهى عمر تفاحا فقال لو أن عندنا شيئا من تفاح . فإنه طيب . فقام رجل من أهله فأهدى إليه تفاحا. فلما جاء به الرسول قال : ما أطيبه وأطيب ريحه وأحسنه. ارفع يا غلام واقرأ على فلان السلام. وقل له : إن هديتك قد وقعت عندنا بحيث تحب. قال : عمرو بن مهاجر فقلت له يا أمير المؤمنين ابن عمك رجل من أهل بيتك. وقد بلغك أن

١- المرجع السابق ص ٢٧٩ ، ٢٨٠.

٢- المرجع السابق ص ٣٠٥.

٣- المرجع السابق ص ٣٠٧.

النبى ﷺ كان يأكل الهدية. ولا يأكل الصدقة : قال : إن الهدية كانت للنبى ﷺ هدية وهى لنا رشوة) [1].

سمات بطانة عمر بن عبدالعزيز :

إن الحاشية التى تجالس الحاكم وتتقرب إليه قد تفسده وتشير عليه بالسوء. فتسئ إليه وإلى الرعية وتستفيد من قربها. ولقد أدرك ذلك عمر . فأراد أن يضع شروطا لبطانته حتى تساعده تلك البطانة على الخير. وحتى يبتعد عنه الخائنون والغادرون والمتزلفون والمنتفعون فما أكثرهم فى كل عصر ومصر.

(قال عمر بن عبدالعزيز لجلسائه : من صحبنى منكم فليصحبنى بخمس خصال : يدلنى من العدل إلى ما لا أهتدى له. ويكون لى على الخير عونا. ويبلغنى حاجة من لا يستطيع إبلاغها. ولا يغتاب عندى أحدا. ويؤدى الأمانة التى حملها منى ومن الناس. فإذا كان كذلك فحيهلا به وإلا فهو فى حرج من صحبتى والدخول على) [2].

الله الله الله. أليس هذا منهجا فى تنقية الحاشية من قرناء السوء ؟ بلى. ولقد جعل عمر بن عبدالعزيز الحكم عبادة لله وخدمة لعباده. ولم يجعل من نفسه وبطانته عصابة تنهب البلاد وتذل العباد .

عفة عمر بن عبدالعزيز عماليس له :

لقد حرص عمر بن عبدالعزيز الحرص كله أن لا يستبيح شيئا يسيرا لنفسه أو لأسرته. بل بالغ فى حرصه. (حدثنا خالد بن مرداس حدثنا الحكيم يعنى ابن عمر . قال : شهدت عمر ابن عبدالعزيز وأرسل غلامه يشوى بكبكبة من لحم. فعجل بها . فقال : أسرعت بها ؟ قال : شويتها فى نار المطبخ. وكان للمسلمين

١- حلية الأولياء جـ٥ ص ٢٩٤.

٢- المرجع السابق ص ٣٣٦.